ماذا فى الجانب الآخر

ترجمة : فتحى أبو رفيعة

كان جهاز البيدومتر الذى أحمله (وهو جهاز يعد الخطوات التى أقطعها فى الطريق) يشير الى أننى لم اكن قطعت أكثر من خمسة وعشرين ميلا . ورغم أنه كان شيئا مؤسفا أن أتوقف عن المسير الا أننى كنت متعبا الى حد كبير فجلست على أحد الاحجار الموجودة فى الطريق أنشد الراحة ولو للحظات. وكنت ألمح الناس وهم يتعدوننى وعلى وجوههم علامات الاستهزاء والتهكم لكننى كنت فى حالة من التبلد والجمود منعتنى من الاحساس بالغيظ أو التبرم لما يبدون من استخفاف ، وحتى عندما مرت بى « مس دمبلبى » ، وهى معلمة ذات شأن ، واستحثتنى على المثابرة والاستمرار فى السير فقد ابتسمت لها فقط ورفعت قبعتى محييا اياها .

ولقد ظننت فى أول الامر أننى سأنتهى الى نفس النهاية التى آل اليها أخى ، فلقد تركته على نفس الطريق منذ عام أو عامين . لقد أضاع أخى حياته فى الغناء ، وأضاع قوته فى مساعدة الآخرين . أما أنا فلقد كنت أنظم رحلاتى بحكمة أكثر ، وما أرغمنى على الاستسلام فى هذه المرة الا هذا الطريق الممل الكئيب . كان الطريق مترباً ، وتحف به من على الجانبين احراش جافة سمراء ، ولقد لازمنى هذا المنظر طوال سيرى على الطريق .

وعلى الطريق كنت قد أسقطت أشياء كثيرة . وفى الحقيقة كان الطريق خلفى مغطى بأشياء كثيرة خلفتها جميعا ونحن نسير عليه . وكان التراب الابيض يغطى كل تلك الاشياء حتى بدت جميعها كأنها أحجار ملقاة فى عرض الطريق . وكنت منهكا لا أقوى على حمل ما بقى معى من أشياء .. واضطجعت على الحجر الملقى فى الطريق منهكا وأنا أولى وجهى ناحية الحرش الجاف داعيا الله ان تكون تلك هى نهاية المطاف .

وهبت نسمة خفيفة بعثت الحياة فى أوصالى .. وبدا لى أن تلك النسمة أتت من الحرش المواجه لى .. وعندما فتحت عينى كان هناك بصيص من النور خلال تشابك الفروع والاوراق الميتة . ولم يعد الحرش كثيفا كما كان . وفى حالتى الواهنة المخيفة وددت لو امكننى ان أشق طريقى خلاله لارى ماذا فى الجانب الآخر . وعلى مدى بصرى لم أر أى انسان وما كان لى أن أجرؤ على التفكير

فى ذلك اذ أننا ونحن على الطريق لم يكن فى محادثاتنا ما يدل على أن هناك جانبا آخر بالمرة ·· واستسلمت للاغراء قائلا لنفسى اننى يجب أن أعود فى ظرف دقيقة واحدة · وأحدث الشوك خدوشا فى وجهى ، واستخدمت ذراعى كدرع يقينى منه · واعتمدت على قدمى فقط كى توجهانى الى الامام ·

وحينما وصلت الى منتصف الطريق وددت لو أننى تمكنت من العودة فكل الاشياء التى بقيت معى كانت قد سقطت منى ، واما عن ملابسى فلقد كانت تقطعت تماما ·· وأصبحت عودتى مستحيلة اذ أننى أصبحت محاطا بالاحراش من كل جانب · وكان على أن أشق طريقى الى الامام دون أن أرى أى شىء على الاطلاق متوقعا أن تخوننى قواى فى أى لحظة وتكون نهايتى حيث أنا ·

وفجأة أحسست بماء بارد يحتوينى ويغطى رأسى · وأحسست أننى أغوص فى اعماق لانهائية · وسقطت من الحرش الى بحيرة عميقة ·· وأخيرا طفوت على السطح وأنا أصرخ طالبا النجدة · وسمعت رجلا فى الجانب المواجه يضحك ويقول متعجبا : « انظروا ! هاقد أتى واحد آخر ! » ·

وبعدها جذبت الى خارج البحيرة ووضعت وأنا ألهث على الارض الجافة ·

وحينما أفقت من غيبوبتى وفتحت عينى كنت فى غاية الدهشة اذا أننى لا أذكر أننى رأيت مساحة شاسعة كتلك التى رأيتها ، ونظرت فوقى فوجدت السماء رقعة زرقاء واسعة ·· وحولى كنت أرى الجبال وأشجار الزان العالية ·· والمروج الخضراء والبحيرات الصافية .

وكان المكان يفوح برائحة البشر ·· كان كثير الشبه بحديقة أو متنزه ·· وما أن استرددت أنفاسى حتى نظرت الى منقذى وقلت :

ـ الى اين يقود هذا المكان ؟·

وقال الرجل ضاحكا ـ شكرا لله !! انه لا يقود الى شىء ·

كان رجلا فى الخمسين أو الستين من عمره ·· من ذلك النوع من الناس الذين لانشق بهم ونحن على الطريق رغم أنه لم يكن فى تصرفاته مايدعو الى القلق · أما صوت الرجل فكان يوحى بأنه شاب فى الثامنة عشرة ·

وصحت فى وجه الرجل :

ـ لكن هذا الطريق لابد أن يقود الى شىء ·

وصاح الرجل الى بعض الرجال الموجودين على سفح التل :

ـ انه يريد أن يعرف الى أين يقود هذا المكان ـ ولم نتلق ردا لكن الرجال ضحكوا وهم يلوحون لنا بقبعاتهم ·

ولاحظت فيما بعد أن البحيرة التى سقطت فيها كانت فى الحقيقة خندقا يحوطنا من الشمال ومن اليمين · وكان الحرش ملازما لحافة البحيرة · وكان أيضا أخضر اللون فى هذا الجانب ، وجذوره تظهر خلال المياه الصافية والسمك يعوم حولها · وكان المكان عامة جميلا تملؤه الازهار · وأحسست أن كل هذه الاشياء ليست الا حاجزا كبيرا · وفى لحظة واحدة فقدت بهجتى · نسيت العشب الاخضر والسماء الصافية والاشجار العالية ونسيت السعادة التى ينعم بها الرجال والنساء فى هذا المكان وأيقنت

انه ليس الا سجنا رغم كل ماله من جمال واتساع ·

وتحركنا من مكاننا وسرنا فى طريق تحف به المروج · ووجـــدت أنه من الصعب أن أسير فلقد تعودت على أن أفوق كل زملائى فى المسير ، ووجدت أنه ليس هناك أى امتياز فى ذلك مادام الطريق لايقود الى شىء ·

ووقفت فجأة وأنا أقول فى يأس : ان ذلك شىء مخيف للغـــاية · كيف لايستطيع الانسان أن يتقدم وأن يتطور انه شىء مخيف فعلا ··

ـ نعم أنا أعلم ذلك ·

ـ أريد أن أقول اننـــا فى تقـــدم مستمر ·

ـ نعم أنا أعلم ذلك ·

ـ اننا دائما نتعلم ـ نتوســـع ·· نتطور ·· اننى فى حياتى القصـــيرة شاهدت كثيرا من الاختراعات ·· انظر مثلا هذا الـ ··

وأظهـر له البيدومتر ·· لـــكنه كان لايزال يشير الى الخامسة والعشرين ولم يتحرك عنهـــا درجة واحدة · وصحت :

ـ لقد توقف ·· كنت اريد ان أريك اياه ·· كان يجب أن يسجل كل الوقت الذى سرته معك ·· لكنه مازال يشير الى الخامسة والعشرين ··

وقال الرجل باتزان :

ـ ان أشياء كثيرة تتوقف عن العمل هنا ·

ـ لـــكن قوانين العلم شـــاملة فى تطبيقهـا ·· لا بد فقط أن الماء الموجود فى البحيرة هو الذى أفسد الآله ·· ان كل شىء يعمل فى الحالات الطبيعية ·· العلم وروح المنافسة ·· ان هـــذين الشيئين هما اللذان جعلا منا ماهو نحن الآن ·

وتوقفت عن الكلام لأرد التحية للناس الذين كنا نمر بهم ·· كان بعضهم يغنى والبعض يتكلم ·· والبعض مشغول فى العمل فى أى شىء ·· وكان كل الناس يبدون فى غاية السعادة · وربما كان من الممكن أن اكون أنا الآخر سعيدا لو امكننى أن أنسى أن هذا المكان لايقود الى شىء ·

واستلفت نظرى شاب جاء يعدو خلال الطريق ثم احتمى بحاجز صغير وراح يبكى بكاء مرا فوق أرض محروثة حتى أصبح غارقا فى بحر من دمـــوعه بدأ بعدها يعوم فيه فعلا ·· وكان الرجل فى الحقيقة نشطا للغاية وهو يسبح ·· وسألت رفيقى :

ـ هل هو سباق ؟ ·· أين الآخرون اذن ؟ ·

ـ ليس هناك آخرون ·

قال الرجل ذلك ثم مررنا على بعض أعشاب طويلة يخرج منها صوت فتـاة تغنى غناء عذبا ·· وقال الرجل مرة ثانية :

ـ نعم ·· ليس هناك آخرون ·

وكنت فى حيرة من أمر هؤلاء الناس وتمتمت الى نفسى متسائلا :

ـ ماذا يعنى كل ذلك ·

وقال الرجل :

ـ انه يعنى ما يعنى ·

ثم كرر كلماته على مسمعى بهدوء كما لو كنت طفلا صغيرا ..

وقلت أنا بهدوء أيضا :

ـ اننى أفهم . لكنى لا أوافق ..ان أى انتصار لاقيمة له ان لم يكن حلقةفى سلسلة التطور . ويجب ألا أثقل عليك اكثر من ذلك .. يجب أن أعود بأى طريقة الى الطريق الذى كنت فيه .

ـ لكنك أولا لابد أن ترى بواباتنا .. ان لنا بوابات رغم اننا لا نستعملها أبدا .

واستسلمت بأدب .. ولم يمر وقت طويل حتى وصلنا مرة أخرى الى البحيرة .. وفى هذا المكان اقيمت عليها قنطرة تمتد عليها بوابة عظيمة بيضاء كانها العاج .. وكانت البوابة فى مكان لايوجد فيه الحرش الممتد . وكانت تفتح للخارج .. وعندما صرت أمامها صحت فى دهشة فلقد كانت تفتح على طريق يشبه تماما الطريق الذى تركته .. طريقا مترب تحف به من على الجانبين أحراش جافة سمراء ممتدة على مدى البصر .

وصحت قائلا : هذا هو طريقى ..

لكن الرجل أغلق البوابة وقال :لكنه ليس مكانكمن الطريق.. ان الانسانية عبرت خلال هذه البوابة منذ قرون عديدة عندما تملكتها الرغبة فى السير.

ولم أصدق ماقاله الرجلفلقد لاحظت ان المكان الذى تركته وأنا على الطريق لايبعد اكثر من ميلين .. ولكن ملامح الرجل كانت عنيدة وهو يقول لى :

ـ نعم .. انه نفس الطريق ..ولكن هذه هى البداية .. ورغم أن الطريق يبدو أمامنا مستقيما الا أنهغالبا مايتفرع .. انه لا يبعد عن دائرتنا فى أى وقت بل انه يتلامس معنا فى أغلب الاحيان .

وبعد ان انتهى الرجل من حديثه جلسنا بجانب البحيرة ورحت أحاول اقناعه بخطئه .

قلت له : ان الطريقيتشعب بالتاكيد .. أنا معك فى ذلك .. لكن من ينكر أن الصفة العامة للطريق هى أنه يمتد للأمامويتقدم .. اما الى اى هدف فهذا مالا نعرفه ..ربما يقود الى جبلنستطيع من عليه أن نلمس السماء .. بل ربما يقود الى هاويات تودى بنا الى البحر . لكنه على أى حال يقود الى الامام .. من ينكر ذلك ؟ .. انه التفكير فى التقدم هو الذى يجعلنا نبذل الجهد فى سبيل التفوق . كل بطريقته .. وذلك يعطينا الدافع الذى ينقصك أنت وأهل بلدتك .. انظر مثلا ذلك الرجل الذى مر بنا .. لقد كان يجرى بسرعة كبيرة .. ويقفز بطريقة حسنة ـ ويعوم بطريقة حسنة أيضا ـ لكن لدينا من يمكنهم الجرى بسرعة أكبر .. ومن يقفزون ويعدون بطرق أحسن .. ان التخصص عندنا يعطى نتائج تدهش لها كثيرا .. خذ على سبيل المثال هذه الفتاة .

وهنا توقفت عن الكلام لحظة ثم أكملت :

ـ يا الهى : اننىأقسم أن«مس دمبلبى» هى التى كانت تغنى هناك .

وقال الرجل انها هى فعلا مس دمبلبى .

« مستحيل ! لقد تركتها على الطريق وعليها أن تحاضر هذه الليلة فى تنبردج ويلز ـ كيف يحدث ذلك .. لقد قام قطارها من كانون ستريت فى ..

ونظرت الى ساعتى ·· لكنها كانت متوقفة ·

« نعم لابد أن تتوقف هى أيضا ككل شىء هنا ·· مستحيل ··ان مس دمبلبى هى آخر شخص يمكن أن يكون هنا ·

وقال الرجل بنفس اتزانه :

« ان النـاس يندهشون كثيرا حينما يتقابلون ·· ان الناس من كل الاجناس يأتون الى هنا ·· وفى أى وقت ··انهم يأتون خلال الحرش ·· المتفوقـون فى السير ·· والذين يتخلفون على الطريق والذين يتركون للموت ·· كلهم يأتون الى هنا ·· اننى دائما أقف على شاطىء البحيرة وأتسمع الأصوات الصادرة عن الطريق ·· وأكون فى غاية السـعادة حينما أنقذ أحدا من البحيرة التى سقطت فيها ·· ان بلدنا تمتلىء ببطىء مع أنها وجدت لكل البشرية ·

وقلت للرجل بلطف : « ان للبشرية أهدافا أكبر ·· ولا بـد لى أن ارتبط بها ·· وتمنيت له مساء طيبا ·· فلقـد كانت الشمس ساعتها تميل ناحيـة الغروب ·· وقلت له أنه بحلول الليل لابد أن أكون على الطريق ·

ومما زادنى انزعاجا أن الرجل أمسك بتلابيبى وهو يصيح : كلا ·· لم يحن بعد ميعاد رحيلك » ·

وحاولت التخلص من الرجـل فليس هناك أية مصالح تربطنى به بعد ذلك ·· وخاصة بعد ان بدأت امل مجاملاته السـخيفة ·· ورغم كل محـاولاتى للتخلص الا أن الرجل العجوز المتعب لم يدعنى أذهب ·

واضطررت أن أتبعه ·· فلقد كان من المستحيل فعلا أن أصل الى المكان الذى أتيت اليه وحدى ·· وتمنـيت أن يرشدنى الرجل اليه ·· وكنت مصمما على ألا أمضى ليلتى فى هـذه البلدة لأن ثقتى كانت قد انعدمت بالرجل وبالناس رغم كل ماكانوا يظهرون لى من صداقة ··

ورغم أننى كنت جائعـا الا أننى لم اشاركهم فى وجبة المساء التى تتكون من اللبن والفاكهة ·· وعنـدما كانوا يعطوننى الزهور كنت أقذف بها بعيدا بمجرد أن يكون فى استطاعتى أن أفعل ذلك دون أن يلاحظنى أحد ·

وعندما حل المساء تناثر الناس نياما كانهم الماشية ·· فالبعض على سـفح التل العارى ·· والبعض فى جماعات تحت أشجار الزان العالية ·

وفى ضوء الشمس البرتقالى ساعة الغروب كنت أسرع بجانب مرشدى الذى لم أعد أطيقه ·· وكنت منهكا تماما ·· ولكننى كنت أتمتم بغير وضوح :

« اعطنى الحياة بما فيها من نضال ·· وانتصارات ·· وبما فيها من فشل ومن أحقاد ·· بما فيها من معان أخلاقيـة وبما لها من هدف لا نعرفه ··

***

فى النهاية أتينا الى مكان من البحيرة تقام عليه قنطرة أخرى تمتد عليها بوابة ثانية تحتل مكانها بين الحرش الموازى للبحيرة ·· وكانت هذه البوابة تختلف بالنسبة لسابقتها ·· اذ كانت تفتح الى الداخل ·· وفى الضوء الخافت رأيت مرة أخرى طريقا كالطريق الذى تركته ·· طريقـا مملا ·· مترب تحف به الاحراش السمراء الجافة الممتدة على مدى البصر من على الجانبين ·

وشعرت بنفسى تنقبض وشـعرت بنفسى أتهاوى من شـدة التعب · ومر

بنا رجل عائد فى المساء الى الجبال وهو يحمل منجلا كبيرا على كتفه وبيده وعاء به مشروب لا أعرف ماهو .. ونسيت تعبى وضيقى .. ونسيت الطريق الذى كان يمتد أمام عينى .. واندفعت خلف الرجل وانتزعت الاناء من يده ورحت أشرب .

كان المشروب الذى بالوعاء شـــيئا أقوى من البيرة قليلا..لكنه أبدى تأثيرا قويا على وخاصة أننى كنت منهكا متعبا لدرجة كبيرة ..

وكما لو كنت فى حلم رأيت العجوز يغلق البوابة وسمعته يقول: «ان طريقك لينتهى فى هذا المكان .

وخلال هذه البوابة سوف تأتى لنا كل البشرية أو قل ما بقى منها .

ورغم أن كل حواسى كانت قد فقدت وظائفها الا أنها قبل أن تفقدها تماما كنت قد أدركت سحر أغانى العندليب من حولى ورائحة العشـــب الحلوةالتى تخللت خياشيمى ..والنجوم التىكانت تتلألأ فى السماء .

أما الرجل الذى اغتصبت منـــــه الشراب فلقد انحنى الى برفق محـاولا أن يخفف عنى أثره وبينما كان يفعـل ذلك اكتشفت شيئا مثيرا ..كان الرجل هو أخى ..